إحياء علم مقارنة الأديان حتمية إسلامية حضارية

د/ عبد القادر بخوش
جامعة الأمير عبد القادر ـ قسنطينة ـ

إن الفكر الإسلامي مدعوّ في العصر الحاضر أن يبين صورة الإسلام النقية ومعالمه في عقول أتباعه، ثم يرفع اللبس والغموض الذي يكتنفه عند الآخرين من جراء المخططات التهويدية والحملات العدائية التي تشنها اليهودية التلموذية والدوائر العدوانية العالمية، علاوة على فضحها وكشف زيفها.

إن التطلع لمعرفة على هذا المستوى المسؤول يتطلب من الفكر الإسلامي المعاصر أن يقتحم حلبة الصراع الديني في عالم أهم ما يميزه ذلك الصراع العنيف بين الأديان والإيديولوجيات المختلفة، حيث لا خلاف في أن جوهر هذا الصراع ديني، مهما اتخذ من أشكال سياسية أو اقتصادية أو حضارية.

ومن هنا تأتي أهمية إحياء علم مقارنة الأديان، وبعثه من جديد، علاوة على اعتبارات أخرى في غاية الأهمية نجملها فيما يأتي:

من المؤكد أن التهويد استعان بعلم مقارنة الأديان في تحقيق أغراضه ومآربه. لقد سبق وأن ذكرنا أنه تم حشد جحافل من المستشرقين لدراسة الأديان بصفة عامة والإسلام بصفة خاصة.

وبالفعل لم يدخر المستشرقون لدراسة الأديان بصفة عامة والإسلام بصفة خاصة.

وبالفعل لم يدخر المستشرقون اليهود جهدا في دراسة الإسلام وما يتصل به، فهذا جولد زيهر الذي نذر نفسه لخدمة المخططات اليهودية، كان مبعثا للاحترام والتقدير من قبل المفكرين المسلمين أنفسهم، على سعة اطلاعه على العلوم الإسلامية في معرض انتقادهم له ودحضهم لآرائه.

وليس غريبا أن لا تسمح الجامعات الألمانية لمستشرق أن يتبوأ منصب الأساتذية في الدراسات الإسلامية دون أن يستكمل إتقان سبعة لغات شرقية قديمة على الأقل[1].

- في غمرة الصراع الإيديولوجي المحتدم اليوم، تغمر العالم نزعة العولمة، وما يتبعها من ترويج لفكرة الثقافة الكونية للقرية العالمية الواحدة، وهي تحاول بسط هيمنتها الغربية بشقيها اليهودي المسيحي على العالم.

جاء كل هذا ليؤكد أن الفكر اليوم لا وزن له ما لم يحقق عالميته، وبإمكان الفكر الإسلامي المعاصر توظيف مقارنة الأديان لتحقيق ذلك لاعتبارين اثنين:

1. إن الإسلام قرر منذ البدء بعالمية الرسالة بقوله تعالى: «قُلْ يَاأَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ لاَ إِلَهَ إِلاَ هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ»[2].

ومما يعزز هذه العالمية ويدعمها ما ينفرد به الإسلام من قدرة فائقة على الحوار وكسب الآخر.

وما نراه من زخم الدراسات الاستشراقية والمقارنة بين الأديان، والتي تنطوي على عداء مقيت هي محاولة حجب جوهر الدين عن البشرية، وغلق الأبواب في وجه الإسلام للولوج إلى العالم والتأثير على شعوبه.

2. إن للإسلام نزعة تصحيحية، فهو المهيمن على الأديان كلها بما فيها اليهودية والمسيحية، والقرآن الكريم زاخر بمثل هذه النصوص التصحيحية التي تعنى بالغرض.

---

[1]- رودي بارت، الدراسات العربية و الإسلامية في الجامعات الألمانية «**المستشرقون الألمان منذ تيودور نولدكه** "، ص 109.

[2]- سورة الأعراف،آية 158.

وإن مقارنة الأديان بإمكانه أن يضطلع بهذا الدور الفعال في رصد الديانات وتتبع تاريخها ومدى تعرضها للتحريف والتبديل. كما يعمد إلى كشف المخططات التهويدية في تاريخ الديانات، علاوة على غربلة التراث الإسلامي مما لحقه من الإسرائيليات والأساطير اليهودية[1]. ومع هذه الأدوار التي يصضطلع بها هذا العلم إلا أن بعض التيارات الفكرية في العالم الإسلامي لا زالت تنظر إليه بنوع من التوجس والحذر، وبالمقابل عمدت المدرسة اليهودية إلى تبنيه والادعاء بأن لعلمائها فضل السبق في ذلك بتصدرهم.

وسنعمل هنا على دحض هذه الفرية مع بيان أن مقارنة الأديان علم إسلامي أصيل، ولكنه ضاع في عصرنا على حد تعبير الأستاذ أحمد شلبي "علم مقارنة الأديان أصيل في العلوم الإسلامية "[2].

أولا – علم مقارنة الأديان وصلته بالعلوم الإسلامية:

إن اهتمام علماء الإسلام الأوائل بهذا العلم أمر لا جدال فيه، حيث نشطت الحركة الجدلية بين المسلمين وغيرهم من أصحاب الديانات المختلفة، وتفاقمت حتى أسفرت عن ميلاد علم إسلامي جديد هو علم مقارنة الأديان الذي تكفل بدراسة الأديان الأخرى لتعريف المسلمين بها من ناحية، فيزدادوا إيمانا بأحقية الدين وهيمنته على الأديان الأخرى.

ولكي يقدم الإسلام لغير المسلمين في صورة مقارنة مع ما يعتقدونه مما يثير الشكوك في عقائدهم ويفتح الطريق أمامهم لتقبل الإسلام، وهم في ذلك ملتزمون بمنهج القرآن في دعوة أصحاب الديانات. فللقرآن الكريم يعود الفضل في تحفيز العقيدة الإسلامية على الحوار وإيقاظ روح البحث فيه، وهذا ما سنبحثه الآن.

---

[1]– محمد خليفة حسن أحمد، «**علاقة سلام باليهودية**«رؤية إسلامية في مصادر التوراة الحالية "،ص 64،65.

[2]– اليهودية، ص.

1 ـــ أثر القرآن الكريم في علم مقارنة الأديان:

قدم القرآن الكريم الإطار العلمي والمنهجي لدراسة الكتب المقدسة ونقدها، وحفل بالحديث المفصل عن كتب اليهود والنصارى، وعرض العقائد والملل والمذاهب المختلفة، وبين مزاعمهم بدقة واستقصاء، ثم ناقشها وبين الزيف والخطأ فيها، وقارن بينها وبين الدين الصحيح الذي أرسل الله به رسله.

قال تعالى: «يَاأَهْلَ الْكِتَابِ لاَ تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلاَ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلاَ الْحَقَّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلاَ تَقُولُوا ثَلاَثَةٌ انتَهُوا خَيْرًا لَكُمْ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا»[1].

ومنهج القرآن في إيراد الحجج يعتمد على ما يأتي:

1. الإقناع العقلي: اندفع القرآن الكريم في حديثه عن هذه الأديان من عقيدة أصيلة فيه، وهي اعتبار العقل كما يقول الحارث بن أسد المحاسبي[2]: "إنه غريزة يتهيأ بها إدراك العلوم النظرية وكأنه نور يقذف في القلب، به يستعد لإدراك الأشياء"[3].

2. الإقناع العاطفي: لم يعتن القرآن الكريم بالعقل فحسب، بل وجه اهتماما كبيرا للعاطفة لأن غايته هي مخاطبة النفس البشرية، والنفس عقل ووجدان.

وما كان القرآن ليصل إلى مراده من الإقناع بمخاطبة جانب وتعطيل جانب آخر، بل ظل القرآن يراعي ملكات النفس جميعها، ويجعلها تتكاتف كلها من أجل

---

[1]- سورة النساء، آية 171.

[2]- المحاسبي، الزاهد العارف، شيخ الصوفية،

[3]- أبو حامد الغزالي، **إحياء علوم الدين**، (بيروت: دار المعرفة، د.ط. د.ت.)، ج1، ص 85.

بلوغ هذا الهدف، لأنه قد يميل العقل إلى الحجة والبرهان، في حين نجد العاطفة مضطربة غير مطمئنة[1].

ويلاحظ هذا الترابط بين العقل والعاطفة في خطاب القرآن الكريم لليهود والنصارى، كما قال جل شأنه: «وَلاَ تَقُولُوا ثَلاَثَةٌ انتَهُوا خَيْرًا لَكُمْ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ»[2].

وأحيانا يحرك عواطفهم بتذكيرهم بأنهم أصحاب كتب مقدسة، ولذا يسميهم بأهل الكتاب، وهذا شرف عظيم لهم.

وعن التلازم بين العقل والعاطفة في أسلوب القرآن الكريم يقول الأستاذ عبد الله دراز: «يبدو أنه فوق طاقة البشر حقا في الأسلوب القرآني، فهو لا يخضع للقوانين النفسية التي بمقتضاها ترى العقل والعاطفة لا يعملان إلا بالتبادل وبنسب عكسية، حيث يؤدي ظهور إحدى القوتين إلى اختفاء الأخرى، ففي القرآن الكريم لا نرى إلا تعاونا دائما بين جميع الموضوعات التي يتناولها بين هاتين النزعتين المتنافرتين»[3].

هكذا وضع القرآن الكريم القواعد الأساسية في نقد الأديان، وأعطى أصولا علمية منهجية لنقدها، تمكن علماء الإسلام بفضلها من الوصول إلى نتائج باهرة، فنشأت الحركة النقدية الإسلامية القائمة على المنهج العلمي التاريخي الدقيق، وعلى الموضوعية التي يمكن الوصول بها إلى الحق. وأدى هذا إلى استخدام المنهج النقدي

---

[1]- ابن عيسى بن عبد القاهر بطاهر، **أساليب الإقناع في القرآن الكريم**، دراسة تطبيقية لسورة الفرقان، (الأردن: كلية الأداب، د.ط. 1990م)، ص 10-11. و انظر: محمد عبد الله دراز، **النبأ العظيم**، نظرات جديدة في القرآن، (الكريت: دار القلم، د.ط. 1970م)، ص 113-115.

[2]- سورة النساء، آية 171.

[3]- **مدخل إلى القرآن الكريم** «عرض تاريخي و تحليل مقارن "، ترجمة محمد عبد العظيم علي، (الكويت: دار القلم د.ط. 1406 هـ 1986م)، ص 17.

التاريخي الذي أسهم في تأسيس قواعد نقد الروايات والمتون نقدا خارجيا وداخليا، وبالتالي كان الفضل لعلماء الإسلام في إيجاد علم مقارنة الأديان.

يقول عبد الله دراز: «إن الحديث عن الأديان بعد أن كان في العصور السابقة لها مغمورا في لجة الأحاديث عن شؤون الحياة، وإما مدفوعا في تيار البحوث النفسية أو الجدلية، أصبح في كتاب العرب دراسة وصفية واقعية معزولة عن سائر العلوم والفنون، شاملة كافة الأديان المعروفة في عهدهم، فكان لهم السبق في تدوينه علما مستقلا»[1].

2- اهتمام علماء الإسلام بمقارنة الأديان.

فالمسلمون إذا كانوا سباقين لوضع أسس علم مقارنة الأديان ونقد الكتب المقدسة. وهذا عكس ما ذهب إليه بعض الباحثين الغربيين بأن الحركة النقدية للكتاب المقدس بدأت منذ مطلع القرن التاسع عشر للميلاد، بفضل سبينوزا وغيره.

إن الباحثين المسلمين اعتنوا – بتأثير مباشر من القرآن – بدراسة أديان الأمم، والتنقيب عن عقائدهم وطقوساها، وألفوا لهذا الغرض كتبا مختصة، وفصولا مطولة في مصنفاتهم، فهذا كمال الدين بن يونس الشافعي[2] يقول فيه ابن خلكان: «إن أهل الذمة من اليهود والنصارى كانوا يقرؤون عليه التوراة والإنجيل فيفسرها لهم، وكانوا يعترفون بأنهم لا يجدون من يوضحها لهم مثله»[3].

---

[1]- الدين «**بحوث مهددة لدراسة تاريخ الأديان** «(الكويت: دار القلم، د.ط. 1982م)، ص21.

[2]- ابن يونس، هو العلامة شرف الدين أبو الفضل أحمد بن الشيخ الكبيثر كمال الدين موسى بن الشيخ رضى الدين يونس بن محمد الإربلي، ثم الموصلي الشافعي، صاحب «شرح التنبيه ".

مات في ربيع الآخر سنة 622هـ. و قد اختصر الإحياء مرتين، و له محفوظات ككثيرة و ذهن وقاد.

انظر: شمس الدين الذهبي، **تهذيب سير أعلام النبلاء**، ج 3، ص 206.

[3]- أبو حامد الغزالي، **الرد الجميل على ألوهية المسيح**، تحقيق محمد عبد الله الشرقاوي، (القاهرة: دار الهداية، ط 2، 1988م)،ص 18.

وهكذا كان علماء الإسلام يستمدون خصائص كل ديانة من مصدرها الموثوق بها، ويستقونها من منابعها الأولى، ويدونونها علما مستقلا اتخذوا له منهجا علميا سليما. فمما لاشك فيه أن ابن حزم يعود إليه فضل الأسبقية في هذا العم وتطبيقه لمنهج صارم في نقد الكتاب المقدس، مما حدا ببعض الباحثين الغربيين إلى اعتباره مؤسس علم مقارنة الأديان بلا منازع، وإن كتابه "الفصل في الملل والأهواء والنحل" أشهر ما ألّف في هذا المجال. ولذلك حظي ابن حزم في الغرب بهالة من التقدير والإجلال[1].

يؤكد الأستاذ **أحمد شلبي** بأنه في منتصف القرن الهجري الثاني، عندما بدأ المسلمون يكتبون الفقه والتفسير والحديث، عمدوا كذلك إلى الكتابة في علم مقارنة الأديان، فهو بذلك علم إسلامي ينتمي إلى حظيرة العلوم الإسلامية[2].

ومن مشاهير العلماء الذين اهتموا بهذا العلم، **النوبختي** (ت 202هـــ) في كتابة "الآراء والديانات"، ويليه **المسعودي** (ت364هـــ)، فكتب كتابه "إدراك البغية في وصف الأديان والعابدات"، وهو كتاب مطول يقع في حوالي ثلاثة آلاف ورقة. ومن أبرز الكتب التي كتبت عن الملل والنحل كتاب **أبي منصور البغدادي** (ت456هـــ)، وكتاب الملل والنحل للشهرستاني (ت 548هـــ)، وكذلك كتاب "تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل مرذولة" **لأبي الريحان البيروني**[3].

---

[1]- انظر: اعتراف بعض الباحثين الغربيين لابن حزم بالريادة و السبق لعلم مقارنة الأديان. **محمود علي حماية**، ابن حزم و منهجه في دراسة الأديان، (القاهرة: دار المعارف، ط1، 1983م)، ص 7 –8.

[2]- اليهودية، ص 27.

[3]- المرجع نفسه، ص 27،28.

وهكذا اهتم المسلمون بدراسة مقارنة الأديان، ولكن سرعان ما لاحت عصور الانحطاط التي لحقت المسلمين حتى اتجه كثير من الفقهاء إلى التعصب لمذاهبهم الفقهية فانحصر أو انعدم اشتغالهم بالأديان الأخرى وتعاليمها.

وإذا كان المسلمون في عصر الانحطاط قد أهملوا مقارنة الأديان، فبالمقابل نجد المسيحيين قد انكبوا على دراسة هذا العلم، وقد حفزهم على ذلك تلك اللقاءات السليمة بين المسلمين والمسيحيين في الشام والأندلس، عرّفت المسيحيين بمقارنة الأديان.

وعندما جاء عصر الاستعمار استعان به المبشرون في نشر المسيحية من جهة، وتشويه صورة الإسلام من جهة أخرى، كما لا يخفى هنا دور اليهود.

وما إن أطل العصر الحديث حتى استفاق المسلمون من غفلتهم وراحوا يحاولون إحياء هذا العلم، ليكون في أيديهم سلاحا كما كان في الماضي. وبهذا رجع علم مقارنة الأديان إلى الظهور في الجامعات الإسلامية، ولكنه ظهور محتشم لم يأخذ بعد مكانته اللائقة[1].

ولذا ينبغي على الفكر الإسلامي الاهتمام بهذا العلم لماله من دور في فهم حقيقي لهذه الأديان وتطورها ومكانها من العلم الحضاري الإنساني، وإدراك مكانة الدين الإسلامي دعما لإيماننا بأنه يحق لجميع البشر أن يقفوا بأنفسهم على كافة الحقائق المتعلقة بهذه الأديان ثم بديننا، حتى يمكنه الحكم والاحتكام بكل إنصاف[2]. ويمكن لهم الكشف عن أنواع الزيف التي ألصقها المغرضون اليهود بكثير من الأديان،«ويوم ينشط هذا العلم ستخبو ترهات الباطل وتتضح معالم الحق، وليس هذا اليوم ببعيد"[3].

---

[1]- المرجع نفسه، ص 30-31.

[2]- محمد كمال جعفر، **الإنسان و الأديان**،(الدوحة:دار الثقافة،ط1، 1406هـ/ 1985م)،ص 121،120.

[3]- أحمد شلبي، المرجع السابق، ص 30.